العنف الثوري في فكر -فرانز فانون- من خلال تجربته في الثورة الجزائرية

أ/ سليم سايح
قسم التـــاريخ- جامعة قسنطينة 2

ملخص:

ظلت النخب الوطنية والنخبة المثقفة بخاصة، في واجهة الأحداث التاريخية، إنطاقا من مسؤوليتها التاريخية في بناء الإطار الفكري والإيديولوجي العام للأمة، وتوجيه وإدارة هذه الأحداث، بحكم أنها الأقدر على استشراف تعقيدات التاريخ ومقاربة نتائجه. وهو ما يجعلنا أمام جدلية "المثقف والعنف الثوري" التحريري للأمة، ويجعلنا أيضا أمام سؤال جوهري هو: هل المثقف، انطلاقا من وظيفته الإبستمولوجية معني بالعنف الثوري؟

لعل نموذج الطبيب والمفكر فرانز فانون الذي ترك إسهامات كبيرة في الثورة التحريرية الجزائرية، يجيب على هذه الجدلية.

الكلمات المفتاحية: المثقف، العنف الثوري، الثورة التحريرية الجزائرية، فرانز فانون

Résumé:

Les élites nationales en particulier les élites intellectuelles en particulier sont toujours restées dans les interfaces des évènements, partant de leur responsabilité historique dans la construction du cadre intellectuel et idéologique de la nation. Nous sommes donc face à la dialectique du lien entre l'intellectuel et la violence révolutionnaire éditoriale en vue de sa fonction et de responsabilité à la fois. L'exemple de Frantz Fanon, le médecin et le penseur, vient nous expliquer cette dialectique.

Mots clés : L'intellectuel, la violence révolutionnaire, la révolution de libération algérienne, Frantz Fanon

مقدمة:

تتعاطى الكثير من الكتابات السوسيو تاريخية مع مسألة حضور المثقف في الفعل الثوري للأمة، خاصة متى ارتبط هذا المثقف بمسألة التحرر والانعتاق من نير لاستعمار، من زاوية ثقافية صرفة وترى – هذه الكتابات- أن حركية المثقف الثورية، تحددها المنطلقات والمشارب الفكرية رأسا. وقد أغفلت هذه القراءات، الجوانب البيئية والعقدية في الملمح العام للمثقف، وهي ترى مثلا وضمن النسق التاريخي المعاصر والفضاء الثوري المحيط، ترى "المثقف الثوري" المنخرط في ثورات شعبه، وهو ينظر لأجلها ويحرض الجموع على من على المنابر الإعلامية والسياسية والفكرية، على إعداد العدة من أجل الإطاحة بالأنظمة الكولونيالية الفاشية .. ترى هذا العمل على أنه انحياز " ضميري أخلاقي" وضع العديد من المثقفين في خانة الاستهداف المباشر من قبيل: القتل و/ أو الملاحقة داخل حدود الأوطان أو خارجها.

إن هذه المقاربة، على ما فيها من جوانب الصحة خاصة ما تعلق بالاستهداف والملاحقة – حتى الموت في أحيان كثيرة – إلا أنها تجعلنا أمام سؤال كبير هنا هو، هل أن انحياز المثقف الوطني لموقف أمته وقضاياها المصيرية، يعد على أنه موقف "ضميري أخلاقي"؟

أعتقد أن المقاربة هنا تبدو أبعد عن الواقع، ذلك أن هذا المثقف هو في النهاية بوصلة الأمة ونبراسها الذي تنساق إليه الجماهير الشعبية دونما تفكير، باعتباره الأقدر على فهم الرهانات والتحديات التي تواجهها الأمة عموما . ولا أدل على ذلك من أن النخبة عموما والمثقفة خصوصا، كانت دوما قاطرة الشعوب في التحرر والتقدم. أعتقد مرة أخرى، أن هذا السياق، سياق "التوجه" الضميري الأخلاقي" يمكن استساغته في حالة النخب الثقافية المحسوبة على الثورة، من خارج هذا الشعب وإن كانت

تعبر عن آماله وتطلعاته. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن" الموقف الضميري" يمكن استساغته لو أمكن رؤية " نظاما استعماريا غير مهلك للأنفس والمقدرات" إن الجواب هنا "لا" بالطبع لأنه لا يمكن تصور نظاما استعماريا غير مفسد، إن النظام الاستعماري بمجمله وكله فاسد.

واخترنا ضمن هذه المقاربة واحدا من الشخصيات النضالية والفكرية التي تركت إسهاماتها الواضحة على الثورة الجزائرية ألا وهي شخصية فرانز فانون. ونقول" التي تركت إسهاماتها" قبل أن نجد الموضع الأقرب لهذه الشخصية ضمن الإطار العام لثورة التحرير الجزائرية.

وإذا كان السؤال الذي يطرح اليوم حول دور المثقف في حركية المجتمع، وفي تحديد الإطار الفكري الإيديولوجي العام للأمة، ما يزال يطرح بإلحاح ، خاصة في المجتمعات المتخلفة والنامية، فان هذا الإلحاح، يستمد أصوله في حقيقة الأمر من مهمة المثقف التاريخية تجاه أمته.

لكن شخصية فرانز فانون وإن كانت لا تطرح إشكالا من حيث إسهاماتها الفكرية والنضالية قي ثورة التحرير الجزائرية، إلا أنها تظل مع ذلك، تطرح عند البعض، إشكالا في تصنيفها. بمعنى آخر،هل فانون يعد من النخبة الوطنية المثقفة – بالفرنسية – أم هو لا يعدو أن يكون واحدا من النخبة الفرنسية اليسارية التي آزرت بإنتاجاتها الفكرية وحتى المادية، الثورة الجزائرية، على غرار سارتر وفرانسيس جونسون وغيرهما. لكن، ما هي الحجج والمبررات التي يستند إليها المعترضون على"جزائرية" فكر– وحتى شخص – فانون ؟ وللإجابة على هذه الإشكالية، وضعنا المحاور التالية :

1- جوانب من طفولة وتعليم فرانز فانون لمعرفة ردود أفعاله تجاه مسألة الاستعمار.

2- انضمام فرانز فانون للثورة التحريرية الجزائرية.

3- إسهامات فانون " الفكرية الثورية " في الثورة الجزائرية.

عندما اندلعت الثورة الجزائرية في الفاتح نوفمبر 1954، ومع مرور الأيام، لم تكن هذه الثورة، في حاجة للسلاح فحسب بل أيضا كانت في حاجة ملحة إلى من يعبر عنها، ويترجم أفكارها للداخل والخارج على حد سواء. فالمجموعة التي فجرت الثورة، كانت من العناصر الثورية "المنظمة الخاصة " وكانت بعيدة عن الأضواء السياسية. وهكذا وجدت القيادة الأولى (التاريخية) نفسها أمام معركة على جبهتين: جبهة عسكرية وجبهة دعائية فكرية، وكانت الجبهة الثانية أكثر أهمية وأكثر إلحاحا. ذلك أن قيادة الثورة هذه، تدرك، أن مسألة الحسم العسكري، مسألة مؤجلة وبعيدة لاستحالة تكافؤ الموازين بين إمكانات الثورة مهما تعاظمت، وبين إمكانات المستعمر الفرنسي المدعومة من اللف الأطلسي- وأن عليها أولا أن تبحث عن تسويق أفكارها ومبادئها لدى القوى الحية في العالم، لأنه متى تحقق النصر الدعائي السياسي، كان تحقيق الانتصار التام مسألة وقت. وقد جاءت فكرة رمضان عبان حول "أولوية السياسي على العسكري"، منسجمة مع هذا التوجه، وهذه القناعة.

ومن جهة أخرى ، كانت هذه القناعة تتطلب البحث أيضا عن إطارات فكرية مثقفة تتولى مهمة ترجمة أفكار ومبادئ ثورة أول نوفمبر 1954. فكان انضمام فرانز فانون في سنة 1957 أن أعطى لثورة التحرير الوطني الجزائرية، زخما فكريا إضافيا، وأسهم أيما إسهام، في ترجمة حسية ونقل مبادئ الثورة الجزائرية إلى كافة أقطار العالم . فمن يكون فرانز فانون ؟

ولد فرانز فانون في الـــ 20 جويلية 1925[1] في "فور دو فرانس"عاصمة "المارتنيك"[2] (Fort de France) التي استعمرها الفرنسيون منذ عام 1636، لتصبح مقاطعة فرنسية عام 1946، وحمل سكانها الجنسية الفرنسية.[3] هو من أب موظف بالجمارك وأم تاجرة، توقف عن دراسته الثانوية بالمارتنيك ليلتحق بالقوات الفرنسية الحرة سنة 1943، وتابع تكوين صف ضابط ببجاية في الجزائر. شارك في معركة تحرير مدينة "طولون" التي خاضها الجنرال "ديليتر دو تاسيني" والتي شكل الجنود" الأهالي" القادمين من المستعمرات ثلث قواتها. وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية، عاد فانون إلى فرنسا ثانية، وعمل لصالح ترشح أستاذه في الثانوية السيد "سيزار"(Cessair) في الجمعية التأسيسية الفرنسية. ثم قرر بعدها قرر التسجيل بكلية "ليون" (Lyon) للطلب[4]، لكن نهمه للعلم والمعرفة، دفعاه أيضا، إلى دراسة الفلسفة وعلم النفس.[5]

تعرف فانون على جوزيف ماري(Marie- josephe) سنة 1949، وأنجبت معه أوليفييه(Olivier) سنة 1950. درس الطب على يد أستاذه " فرانسوا توسكال (François tosquelle) الاسباني المعارض لنظام فرانكو، وتعرف معه على وجه آخر للديكتاتورية، واختار فانون، طريقة توسكال " تطبيق المداواة الاجتماعية" لمعالجة مرضاه، أي المعالجة النفسية لإعادة إدماج الفرد في الجماعة (السوسيوثيرابي) بدلا من" البسيكاتري التقليدية، التي تقصي المريض عقليا من المجتمع. تأثر فانون بالفكر الوجودي، فقرأ لــ : سارتر(Sartre)، بوفوار(Beauvoir)، ولاكان (Lacan). كما كان يحضر دروس : مارلو بونتي(Marleau Ponty)، ولوروي غور هان(Leroy Gour Han). كما شارك في المظاهرات المناهضة للستعمار بعد الحرب العالمية الثانية، وأسس جريدة الطالب "طام طام"(TamTam) (وهي طبلة صغيرة تستعمل في أفريقيا)، وكان ينشرمقالاته في جريدة "العقل"(L'ésprit)، و"الأزمنة المعاصرة"(Les temps modernes).[6]

والحقيقة، أن فانون وهو يبني منطلقاته الفكرية، إنما كان يجر خلفه تاريخه الزنجي الأنتيلي، المليء بالكثير من آلام الرق والعبودية التي فرضت على أبناء المارتنيك. وقد عاش فانون جزء منها، وهو تلميذ على مقاعد الدراسة، ثم وهو جندي في صفوف الجيش الفرنسي، الذي حارب لاستعادة شرف فرنسا المنهار على يد ألمانيا (سنة 1944). فقد خضع أجداد فانون إلى استعمار وعبودية الأوروبي الأبيض، وظلوا رقيقا يعملون في مزارع السكر، وقمعت بشدة، ثوراتهم التي كانوا يقومون بها من حين لآخر. ومع قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة، وظهور النظريات الاندماجية، صبح سكان الجزيرة، يحلمون بالاندماج، وانخدعوا بالتدابير التي اتخذتها باريس إثر الحرب العالمية الأولى، وتوهموا أنهم أصبحوا متساوين مع الأوروبيين. لكن مع ذلك فقد نشأت" برجوازية زنجية " صغيرة، كانت تبحث عن الاندماج والذوبان في الإطار الفرنسي، أكثر مما تبحث عن استقلالها الوطني. كانت أسرة فانون (من الموظفين المارتينيكيين) تنتمي إلى هذه الفئة، التي استفادت من بعض الامتيازات، وقد استطاع خمسة من بين ثمانية أولاد من أسرة فانون، متابعة دراستهم، كان فانون واحدا منهم، ومن الأنتيليين عامة، الذين لم يكونوا يرون في أنفسهم أنهم زنوجا.[7]

كان لانقسام الفرنسيين بين الجنرال "دوغول"(De Gaulle)، والماريشال" بيتان"(Pétain)، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، أثر واضح في تحديد التوجه الفكري النضالي لفانون. ويروي محمد الميلي[8] –أحد الذين عرفوا فرانز فانون عن قرب–، أن فانون اضطر لسرقة قطعة قماش فاخرة من خزانة أبيه وابتاعها، ودفعها ثمن رحلته للالتحاق بالدوغوليين في"الدومينيك " دفاعا عن الحرية.[9] ولكن، فانون الذي انضم للمقاومة الفرنسية ضد الألمان، وقف على مظاهر وسلوكيات صادمة. فقد أدرك أن البيض الذين يحارب في صفوفهم، إنما كانوا يدافعون عن مصالحهم لا عن حرية وكرامة الإنسان. وزادته مظاهر الاحتفالات – قبل إعلان النصر بأسبوع تقريبا – في ميناء " طولون"(Toulon) الحربي، ألما على ألم، عندما كانت البنات والنساء يهتفن للجنود الأمريكان، ويتهافتن على الرقص معهم، وكن يرفضن الرقص مع الملون ولو كان بطل حرب تحريرهم. فكان كتاب " بشرة سوداء أقنعة بيضاء" (masques blancs) (Peau noir) سنة 1952[10] ، صرخة فانون قي وجه القيم الغربية الزائفة، عندما يتعلق الأمر بغير الأوروبي.

1- فانون الطبيب والمجدد:

أجرى فانون امتحاناته الطبية في جويلية 1953، وتقلد منصب طبيب أمراض عقلية لأول مرة في مستشفى "بونترسون" بـــ " النورماندي " من سبتمبر إلى نوفمبر 1953، عين بعدها طبيبا بمستشفى " جوانفيل "– البليدة – بالجزائر، في 23 نوفمبر 1953.[11] وسبق لفانون، أن وقف في فرنسا، على الاختلالات النفسية والمرضية التي كان يشتكي منها مرضاه القادمين من أقطار شمال أفريقيا، حيث كان هؤلاء العمال، يشتكون من آلام المعدة والرأس، لكن بعد فحصهم لا تظهر عليهم أية إصابة، ففهم فانون أنها أمراض أخرى مرتبطة بالعزلة والمنفى، أصبحت تؤثر على صحة ونفسية هؤلاء المهاجرين. فسمى هذه الأعراض، "أعراض شمال أفريقيا" (Le syndrome nord africain).[12]

في مستشفى " جوان فيل" وقف فرانز فانون على الصورة النمطية للمنظومة الاستعمارية المرتبطة بـــ "الأهلي" ولو كان مختلا عقليا في مستشفى الأمراض العقلية. كما أدرك فانون أنه هو ضحية لاضطهاد المستعمر لهذا الأهلي خارج المستشفى. ولم تستثن المنظومة الاستعمارية حتى هؤلاء المجانين، فسلطت عليهم مرة أخرى" قوانين مدرسة طب الأمراض العقلية الجزائرية" التي تتعارض وقوانين الطب النفسي المرتبطة أساسا بالخصوصية الذاتية. لذلك انتقد فانون، بشدة هذه المدرسة العقلية الاستعمارية، في كل الفضاءات التي أتيحت له، في جريدة المستشفى، وفي سير المحاكم، عبر تجارب الطب الشرعي التي تكفل بها. لقد كشف التمييز العنصري الاستعماري، وحدد موقع المرض النفسي للجزائريين في مفهوم عام وهو الاضطهاد الاستعماري المتعدد الأجزاء. وأعد في هذا الخصوص، مقالا علميا في صيف 1955 يعلن فيها التمييز العنصري، وينتقد بشدة بعض الأمراض العقلية العرقية المؤسسة رسميا من طرف المنظمة العالمية للصحة.[13]

لقد فهم فانون وهو يعمل طبيبا للأمراض العقلية، فلسفة الاستعمار التي تقوم على التدمير والاستلاب، تدمير الذاتية الأهلية واستلاب خصوصياتها التي هي مقومات وآليات مناعتها وقوتها. ففي مؤتمر أطباء الأمراض العقلية والعصبية الناطقين بالفرنسية المنعقد سنة 1956، سلط فانون الضوء، على عبثية استخدام تجربة بعض الاختبارات النفسية الغير موضوعية والغير اللائقة للجزائري، لأن هذه الاختبارات لا تصلح في الممارسة السيكولوجية عند الجزائري، فهي من وجهة النظر النفسية اللغوية، لا تحمل ثقافة الجزائري. كما أن مزاعم أنطوان بورو – منظر المدرسة العقلية الجزائرية – من أن اللغة العربية هي لغة فقيرة وعاجزة عن التعبير العاطفي، هي مزاعم مردودة، لأنها تتعارض وقواعد التطبيب النفسي. وأيضا لأنها محصلة ممارسة طبية عقيمة، كان يقوم بها أطباء لا يتحدثون العربية.[14] لذا اتجه فانون، إلى البحث عن المراجع الرمزية للمجتمع الجزائري، وطرائق الطب التقليدي، بحثا عن التجديدات العلاجية، وكان يؤكد على فائدتها العلاجية.[15] فأنشأ داخل مستشفى البليدة ملعبا لكرة القدم، يجمع المرضى والممرضين، وفتح مسجدا، ومقهى مغربي، علقت على جدرانه لوحات رسمها المرضى. كما أنشأ للرجال ورشة للبستنة، وللنساء، الخياطة والصوف. كما عمل على استقدام القصاصين ومغني الشعبي.[16]

لقد اقتنع فانون بأن الشفاء من هذه الأمراض، لن يتأتى إلا بزوال الاستعمار، لذلك لم يتوان في الاستجابة لطلب "بيار شولي (Pièrre Chaullet) في نهاية 1955 الذي كلف من طرف رمضان عبان ويوسف بن خدة، بالبحث عن طبيب نفساني لمتابعة مناضلي ومجاهدي جبهة التحري. وهكذا بدأ بالاتصال بالهياكل المحلية لجيش التحرير الوطني، وعالج العديد من المسؤولين والمرضى. وفي ديسمبر 1956، كانت قطيعة فانون النهائية مع الإدارة الاستعمارية، فقرر الاستقالة من منصبه كطبيب للأمراض العقلية ورئيس مصلحة بمستشفى البليدة، عن طريق رسالة للوزير المقيم العام للجزائر الذي " روبير لاكوست"(Robert (Lacost)) الذي نفاه في نهاية 1957.[17] كانت رسالة الاستقالة هذه، محاكمة جريئة، وتوبيخا لاذعا لسياسة الادارة الاستعمارية كاشفا من خلالها الوجه القبيح لهذه المنظومة الاستعمارية العنصرية التي تدفع بالجزائريين للجنون، ومن ثمة فهم فاقدون للحرية بالفعل والطبيعة.[18]

ومباشرة بعد رسالة الاستقالة، والضبط في 30 ديسمبر 1956، وبطلب منه، التقى بمسؤولي لجنة التنسيق والتنفيذ: رمضان عبان، ويوسف بن خدة، في مسكن بالقرب من شارع مشلي رقم 90، ديدوش مراد حاليا، ليوجه إلى " تيطوان " بالمغرب مرورا بباريس. وفي تيطوان، شارك في تحرير نشريات " المقومة الجزائرية" ثم في تونس. وفي 1957 عين طبيبا للأمراض العقلية في مستشفى" منوبة" بتونس. واستمر في ذات الوقت بالعمل بمصلحة الصحافة والإعلام لجبهة التحرير الوطني، ولجنة تحرير جريدة "المجاهد" اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني التي ظهرت بتونس في أوت 1957. وابتداء من ديسمبر 1958، عين من قبل الحكومة المؤقتة الجزائرية، عضوا بالمفوضية الجزائرية في مؤتمر أكرا من 8 إلى 12 ديسمبر، ثم مكلفا بمهام طبية على الحدود الشرقية والغربية، ليكلف في الأخير بالتحضير لفتح جبهة الجنوب. وفي 1959، غادر مستشفى منوبة، وأنشأ مركزا للطب النفسي العصبي في مستشفى" شارل نيكول" بتونس العاصمة. ومع ذلك ، ظل على اتصال بجماعة تحرير المجاهد التي كان يشرف عليها أحمد بومنجل.[19]

هذه أهم المهام التي كلف بها أو أسندت لفرانز فانون، في مسار الثورة الجزائرية، والتي أردنا التذكير بها إنصافا للرجل. على أن الأهم في مسار فانون النضالي، يظل بلا شك، عطاءه الفكري الذي منح للثورة الجزائرية زخما كبيرا على المستوى الإفريقي والعالم ككل.

2- فانون المثقف الثوري:

لا يختلف اثنان على أن " العنف الثوري" يظل محور الفكر الفانوني بل ويظل ملازما له . فقد تجاوز فانون الفكر اليساري المتردد في عقيدته في الغالب، إلى ممارسة الفكر الثوري الذي كان يراه فعلا إيجابيا، لأنه ببساطة يعني إعادة بعث إنسان، جرد من كل مقومات الحياة الإكلينيكية (الوظيفية) والروحية، لأنه فقد كل انسجام مع هويته التي سلبها منه الاستعمار.

هذه المحصلة كانت محصلة دراسة فانون للبنية الكولونيالية، ليخلص إلى تجاوز جدلية ارتباط الاستعمار بالمستعمر(بفتح الميم) كحتمية تاريخية لتتحول هذه الشعوب إلى التطور. إن الجنون العقلي برأي فانون هو محصلة لإرادة الاستلاب الكاملة والمطلقة، كيانا وانتماء، التي يفرضها المستعمر (بكسر الميم) على المستعمر(بفتح الميم). لذلك ففانون وهو يبحث عن قواعد التجديد العلاجية (المرتبطة باللغة والدين والعادات ..) إنما كان يبحث عن قطيعة بين الجلاد والضحية، كان يبحث عن إنسان متحرر من مسببات جنونه، يرفض الخنوع والاستكانة، أي إنسان يتملك مصيره في النهاية. فالاستعمار عنيف، ويستمد وجوده وقوته، من جبروته وطغيانه وبطشه بالمستعمرين. لذلك وجب التصدي له، ومجابهة العنف الاستعماري بالعنف الثوري. ويعتقد فانون اعتقادا جازما، أن هذا العنف الثوري هو عنف إيجابي، لأن العنف حينما يطهر الأفراد من السموم، فإنه يخلص المستعمر (بفتح الميم) من مركب النقص الذي يعبث به ويعيث في نفسه فسادا، ويحرره من حالة الشاهد اليائس. أي أنه يرد إليه شجاعته، ويرد إليه اعتباره في نظر نفسه.[20] وقد وجد فانون الدعم من صديقه "سارتر" في مسألة إيجابية العنف الثوري بالنسبة للطرف الثاني، وهو الاستعمار، إذ يقول سارتر :".نحن أقوام أوربا كذلك نتحرر من الاستعمار ومعنى ذلك أنه بواسطة عملية دامية يقتلع منا المعمر الموجود داخل كل واحد ..علينا أولا مجابهة هذا المنظر غير المتوقع: تعرية إنسانيتنا بالتدريج. إنها عارية تماما لا جمال لها، إذ لم تكن إلا أيديولوجية كاذبة وتبريرا متقنا للنهب..إنكم بدون شك جلادون ولا ندامة في تنفيذ الإبادة الجنسية..".[21] إن هذه النتيجة التي توصل إليها فانون لم تكن نتيجة مطلقة منذ بدايتها، ففانون عاش في الجزائر الظروف الموضوعية قبل اندلاعها، والتقى مع الشعب الجزائري من خلال هذيان المرضى الذين كان يعالجهم في "البليدة"، وتعرف على المدى الذي يمكن أن تصل إليه محاولات المسخ والتشويه الاستعماري.

لقد وجد فانون في الثورة الجزائري، الفضاء والميدان الذي كان ينشد العمل فيه ليؤدي ما أملته عليه النتيجة التي توصل إليها، أي ميدان يسمح له ويمكنه من خوض غمار معركة كلية ضد الاستعمار، بجميع أشكاله الظاهرة والخفية، الحسية والمعنوية. كانت إذن الثورة الجزائرية بالنسبة لفانون، الميدان الأنسب لهذه المعركة . فقد لمس فيها " ذلك الشمول وتلك الكلية التي تأكد من خلال تجربته الخاصة، أنها الطريق الوحيد للخلاص، من براثن الاستعمار. وعندما يتخلص المستعمر من لوثة الفكر الاستعماري، ينتهي إلى القول مع فانون" أنه ليس في الإمكان الانفصال عن الاستعمار إن لم يتم في الوقت نفسه الانفصال عن الفكرة التي يكونها المستعمر عن نفسه من خلال عصارة الثقافة الاستعمارية".[22]

ولعل هذه القناعة الراسخة لدى فانون، هي التي جعلته يفتتح كتابه الأهم" معذبو الأرض" [23] (أو المعذبون في الأرض) بموضوع العنف". ويؤكد فانون على أن "محو الاستعمار إنما هو حدث عنيف دائما..إن محو الاستعمار، على أي مستوى..إنما هو إحلال "نوع" إنساني محل "نوع" إنساني آخر، إحلالا كليا، كاملا، مطلقا، بلا مراحل انتقال.."[24] وفي مقاربة رائعة، يحيلنا فانون إلى علاقة ظلت تحكم المستعمر والمستعمر):" إن الشعب الذي ظلوا يقولون أنه لا يمكن أن يفهم غير لغة القوة، يعزم أمره الآن على أن يعبر عن نفسه بلغة القوة . والحق أن المعمر قد دله منذ زمان طويل على الطريق التي يجب أن تكون طريقه إذا أراد أن يتحرر. والحجة التي يختارها المستعمر إنما دله عليها المعمر، فاذا المستعمر هو الذي يؤكد اليوم أن الاستعمار لا يفهم إلا لغة القوة ".[25] لكن الأهم في كل هذا، هو السؤال عن الكيفية التي يتم بها هذا التحول في

الأفكار والإرادات. بمعنى كيف يمكن لشعب منهار، مسلوب الإرادة، أن يستنهض ويستجمع قواه لمجابهة هذا المستعمر الجلاد الذي يملك عقيدة القتل والإبادة بلا هوادة ؟

في هذه الصورة التي تبدو قاتمة ومدمرة، يكون المثقف هو الأقدر على تحويل مشاهد الإبادة التي يملأ بها المستعمر المكان، إلى قرابين حرية للأجيال القادمة.

ويقول محمد الميلي – أحد الذين عرفوا فانون عن قرب – وهو يقدم لكتاب فرانز فانون "من أجل أفريقيا" :" وعندما يلتقي المثقف" الأهلي" مع الشخصية المعنوية لشعبه، يهزه سخط عميق على المحاولة الاستعمارية التي مثلت به، ويرفض رفضا كليا الاستعمار في جميع أشكاله، وينكر أن يكون لهذا الاستعمار أية إيجابية".[26]

كان فرانز فانون، من أكثر المهووسين بالمثقف، ودوره الذي يفترض أن يضطلع به لقيادة الأمة نحو التحرر، باعتباره الأقدر دون غيره على استيعاب ماضي وحاضر ومستقبل هذه الأمة. غير أن فانون نفسه، لا يسلم من الناحية العملية بهذه الفكرة بالمطلق، ذلك أن المستعمر لا يكتفي بأن يطوق ويحطم المستعمر باستعمال القوة المادية، وإنما يجعل منه كل الشر، ويعلن أن السكان الأصليين، لا سبيل لإصلاحهم ونفاذ الأخلاق والقيم الإنسانية إليهم. لكن، عبثا يحاول المستعمر، لأن عادات المستعمر وتقاليده وخرافاته التي يراها المستعمر على أنها علامة الانحطاط والفساد القائم في تكوين المستعمر ذاته، سيدرك هو نفسه أنها خمائر قوته وثورته. لذلك ففي فترة التحرر، يلجأ الاستعمار إلى مناشدة عقل المستعمر، ويرسل رجاله ليشرحوا لهؤلاء المستعمرين ، خصائص القيم الغربية، ويشرحون لهم أن التحرر من الاستعمار ليس معناه التقهقر إلى الوراء، وأن عليهم الاعتماد على قيم الغرب المجربة والراسخة. ويحذرنا فانون من بعض المثقفين المستعمرين ممن ارتبطوا ببرجوازية البلاد المستعمرة، يتلقفون هذه الأفكار، بل ويخترعون لهذه المبررات ما يسوغها، ويكونون في نهاية المطاف، أداة هذه البرجوازية الاستعمارية عندما تفشل في السيطرة على البلاد المستعمرة، وتضطر إلى خوض معركتها الثقافية. [27]

وفي شيء من التبرير لاختيار للتجربة التحريرية الجزائرية، وفي شيء من اللوم والعتاب، على الشعب الأنتيلي الذي فرط في التحرر من الاستعمار الفرنسي، و من عنصرية الرجل الأبيض، يحيلنا فانون إلى أن هذا النموذج من "المثقف"، يتضاءل في المناطق المستعمرة التي عاشت نضالا تحرريا حقيقيا، ودفعت تضحيات كبيرة، وأتاح فيها طول عمر الكفاح، للنخبة المثقفة من العودة إلى ولو بعد تردد طويل، لأن المثقف يميل بطبعه إلى البحث عن التفاصيل، وهذه التفاصيل هي التي تؤجل"انغماس المثقف في الموجة الشعبية العارمة"، نشاهد فيها استئصالا حقيقيا للأفكار التي استمدتها من معاشرتها للبرجوازية الاستعمارية.[28] فأصالة الكفاح التحرري الوطني هي من في النهاية، يؤمن صون قيم النضال والكفاح إلى حد كبير.

غير أنه وإن كان فانون لا ينازعه منازع في التنظير للعنف الايجابي، بل لا نبالغ إذا قلنا أن فانون قد أعطى التبرير الأخلاقي و الطبيعي للعنف الثوري من حيث هو"قيمة إنسانية" يسترد بها الإنسان المضطهد إنسانيته وكرامته، فان السؤال الجوهري هو: ما موقع نضال فرانز فانون وخاصة الفكري منه في حيز الثورة التحريرية ؟ بمعنى آخر ما مدى أصالة فكر فانون؟

قد يبدو الطرح على هذا النحو فيه شيء من الطعن والتشكيك في جهد رجل نذر حياته النضالية، وإن كانت قصيرة إلا أنها كانت غنية و خالصة للثورة. ولكن هذا التساؤل ليس تساؤلا عرضيا أيضا، ذلك أن "الظاهرة الفانونية" التي ارتبطت رأسا بالثورة الجزائرية، وان كانت آثارها واضحة على المستويين الفكري والمادي، إلا أن هذا الجهد لا يصنفه البعض ولا يضعه في نفس المستوى من حيث الولاء والأصالة مع غيره من المثقفين الجزائريين.

وللإجابة على هذه الجدلية، ينبغي الوقوف على رأي كل الأطراف التي لها علاقة بهذه الإشكالية. ونقصد هنا رأي فانون نفسه، ورأي المثقفين الأوروبيين والفرنسيين اليساريين تحديدا، ثم أخيرا موقف المثقفين الجزائريين.

أولا: ولنبدأ بموقف فانون من مسألة الانتماء والأصالة. فبالعودة إلى تاريخه، نجد أن الرجل التزم منذ بدايته الأولى مع النضال بالوفاء لقيم الحرية، الإنسانية التي حيثما كانت مهددة فانه كان يرى نفسه معنيا بها، كما كان يقول في كل أدبياته.[29] وان كانت بداية فانون الأولى، من منطلقات يسارية إلا أنها مع مرور الوقت ، وبعد انضمامه للثورة الجزائرية، أصبحت جزء من هذه الثورة، وأصبح اندفاع فانون وحماسته في التعبير عن قناعته وإيمانه بالثورة، لا يختلف عن حماسة غيره من النخبة الوطنية، سواء الثقافية أو السياسية. ولم يكن فانون يخف، بل لنجده في كل مؤلفاته، يعبر بالمفردات الصريحة وبكثير من الاعتزاز، عن جزائريته. وها نحن نجد فانون في مرافعته القوية ولومه الشديد للتيار اليساري في فرنسا، على تخاذله في التعبير عن مواقف ملتزمة ومنصفة لثورة الجزائريين، ولم يتوان في تحديد موقفه الأخلاقي والعاطفي ألانتمائي للثورة وللجزائر فيقول: " ففي الوقت الذي يتقلب فيه الشعب الجزائري بين آلام مخاض ولادته وخروجه للاستقلال، يحاول اليسار الفرنسي أن يساومه بعنف غير معهود على أنفه ذرة من التأييد. ولهذا، غالبا ما نسمع بعض الديمقراطيين الفرنسيين يقولون لنا: أعينونا على إعانتكم. ومعنى ذلك بعبارة أخرى: قولوا لنا أين تنوون الذهاب بعد الاستقلال. إن هذا الإحراج الذي يتم دائما على المستوى الفردي بين فرنسيين وجزائريين، يمثل قطعا أحد المظاهر المؤلمة للكفاح من أجل الاستقلال...ويجب أن نعترف بأننا لا نستطيع أن نتحمل رؤية بعض الفرنسيين الذين حسبناهم أصدقاء لنا وهم يسلكون معنا أسلوب التجارة الرخيصة ويساوموننا ويقيدون تأييدهم بقيود تحد من أهدافنا. إذا قارنا موقف اليسار الفرنسي بأهداف كفاحنا، يتضح لنا أنه لا يوجد من أقسام هذا اليسار يقبل بإمكانية تحرير وطني حقيقي."[30] إن اعتناق فانون للثورة الجزائرية فكرا وانتماء،هو حقيقة ماثلة شهد له بها حتى أصدقاؤه اليساريين الفرنسيين من أمثال بيار شولي، وكلودين شولي التي لم تتردد غداة نقل جثمان فانون لدفنه بأرض الجزائر كما أوصى هو بذلك، بالقول:"عندما أعيد جثمانه إلى وطنه.."[31]

ثانيا :على أن أبرز المثقفين اليساريين الفرنسيين، هم أيضا لم يترددوا في اعتبار فرانز فانون كأحد أهم المثقفين اليساريين الفرنسيين الثوريين. من هؤلاء :المفكر والسياسي فرانسيس جونسون [32] والفيلسوف الوجودي،جون بول سارتر الذي وقف موقفا أخلاقيا من الاستعمار الفرنسي في الجزائر، عندما أدان سياسة القتل والإبادة التي تنتهجها فرنسا في حق الجزائريين، وأكد أن هذه الجرائم ستظل عارا على فرنسا التي تدعي حمل قيم الحرية والعدالة. وأعلن سارتر عن تأييده لموقف لفانون الذي لم يكن حسبه سوى التزاما فكريا أخلاقيا، الذي لا يتعارض مع الإخلاص للوطن: "وعليكم أن تفهموا أنه لا يمكن أن نتهم بخيانة مهمة ما، لسبب بسيط وهو أنه لم تكن لدينا أية مهمة.."[33]

ثالثا : الرأي الثالث، هو لفصيل من النخبة الوطنية، ونسوق موقف مالك بن نبي من فرانز فانون بتحليل أبو القاسم سعد الله. وهنا أنا أتعمد ذكر مالك بن نبي وكذلك أبو القاسم سعد الله لأنني سأحاول الوقوف على موقفيها معا من فكر فانون، الأول باعتباره مفكرا وفيلسوفا وعالم اجتماع، والثاني كعالم تاريخ. يقول سعد الله :".. فقد تعاصر الرجلان– فانون ومالك بن نبي– وتشابها في التفكير"الثوري" والانتماء إلى الجزائر الرافعة علم الحرية ولكنهما اختلفا بينا في طبيعة الولاء وعمقه والهدف منه، حتى أصبح من الصعب الجمع بينهما على صعيد واحد لأنهما ينتسبان روحيا ووطنيا وعمليا إلى مدرستين مختلفتين: مدرسة تتبع فلسفتها من داخل الجزائر ومدرسة تستمد حيويتها من خارج الجزائر. ويقول ابن نبي بدوره :" أشير هنا إلى قضية فرانز فانون، مع كل التأثر والتقدير اللذين يستشعرهما كل جزائري عند ذكر فانون. إن عمله سيظل ذا قيمة لا تقدر ولكنه في نفس الوقت لا يمكنه أن يقود نشيد النضال والعمل للشعب الجزائري لأنه لا بغوص إلى الجذور العميقة في ذاتية هذا الشعب، ولاهو يعانق كلية موضوعيته الاجتماعية والتاريخية."[34] وقد وقف سعد الله في البداية موقفا وسطا عندما أشار إلى أن اختلاف الرجلين، يعود لطبيعة تكوينهما من ناحية المزاج والعقيدة، وأن هذا لا دخل لكليهما فيه، لكنه عاد ليقف إلى رأي ابن نبي من فانون عندما اختص"عزف النشيد " للجزائري الأصيل، لأن النشيد برأيه هو الذي يقوم بالحشد المكثف للشحنة الكهربائية ، وعلى هذا النحو ، لا يمكن لهذا النشيد أن يتشكل على مسجل أجنبي، لأن عملية تركيب النشيد تتم داخل روح الشعب. ورغم أنه اعترف لفانون بمحاولته عزف النشيد الوطني إلا أن هذا العزف لم يكن خاليا من النشاز، ومن خفقان النبرة.[35]

وللتدليل على قوة حجته ، يسوق ابن نبي مثالا عن مساعدة الانجليز وكيف ساعدوا غاندي على استعادة الحقوق المهضومة للهنود، لكن بقي الموقف في حاجة إلى من يتقمص روح الهند الأصلية والأصيلة. وهكذا فلن يستطيع غير سليل الوطن، أن يعزف روح الوطن. ورغم أن ابن نبي يعترف لفانون بأنه عازف أحسن النبرات الثورية، ورافع لواء الحمية الوطنية، إلا أنه فاقد للرعشة المقدسة التي تهز كيان الشعب الجزائري دون سواه، وتدفعه إلى الكفاح التحرري، ليخلص ابن نبي كما يقول سعد الله، إلى هدفه وهو تجريد فانون من حق التنظير للثورة الجزائرية، لأنه برأيه يكون قد حمل ما لا تسمح به قوانين الطبيعة.[36]

أعتقد أن لا أحد يستطيع إنكار الوازع الروحي القوي الذي يتملك الإنسان عندما يتعلق الأمر بالوطن، ويظل الإنسان متشبثا بكثير من الأنانية المبررة لأي مشاركة في حب هذا الوطن لغير أهل الوطن بالمعنى البيولوجي. ولكن لا يجب أيضا، سد كل المنافذ بدواعي الانتماء بالفطرة، وبالعادات والتقاليد، والدين وغيرها، لإقصاء الآخرين من الانتماء لهذا الوطن أو ذاك، لأنه لو صحت هذه النظرة بالمطلق لأمكننا إخراج الكثير من المثقفين الوطنيين الذين كانوا يعبرون بلغة المستعمر، عن روح هذا الوطن ولأمكننا أيضا، إبعادهم من دائرة الانتماء لهذا الوطن.

اعتقد أن التصنيف وفق هكذا مقاربات، هو حكم قاس، لأنه يعتمد على جوانب غير عاطفية، وان كانت موجودة كما سبق ذكره، إلا أنه لا يمكن الجزم فيها، وتظل أمور لا يقدرها إلا صاحبها.

خـــــاتمة:

وفي الأخير ينبغي التذكير بـــ :

– أن فانون وإن كان وليد بيئة أنتيلية زنجية – ولكنها أفريقية أيضا– فانه قد أتى إلى الجزائر وهي تستعد لإعلان ثورتها الأخيرة ضد المستعمر الفرنسي، فعاش معانات الجزائريين وآلامهم فآمن بالثورة الجزائرية إلى حد العقيدة، وانغمس فيها ودافع عنها بكل ما أوتي من قوة وإيمان.

– أن تماهى فانون مع الثورة الجزائرية إنما كان من منطلق مشاعره الإنسانية، ومن عمق روحه الرافضة للاضطهاد والعبودية، وأيضا من إيمانه بالمبادئ الإنسانية، فوجد في الثورة الجزائرية الفضاء والأداة للتعبير عن ذاته.

– إن الأهم في حالة "فانون والثورة الجزائرية" أنه وهو يقيم محاكمة قانونية وأخلاقية للاستعمار، قد قدم السند العقلي للنخبة الوطنية للعمل بالقوة والعنف داخل مجتمعاتها، وهو الأنسب لها تعريفيا ووظيفيا، بدلا من العمل في الأطر التقليدية التي لا طائل من ورائها

– إن ما يظل يحسب لفانون المثقف والمفكر،هو ارتباطه ودفاعه عن نظرية "العنف الثوري" باعتباره عنفا إيجابيا، ووسيلة شرعية للمضطهدين لاسترداد حقوقهم المغتصبة.

– أن مرافعات فانون ضد الاستعمار تظل قائمة إلى اليوم، ويمكن سحبها لمواجهة النيوكولونيالية التي هي استمرار للاستعمار بأشكال غير تقليدية.

– أن فانون ، يظل برغم اختلاف الرؤى والمواقف، مثقفا جزائريا ارتبط بالثورة الجزائرية فكرا ونضالا.

الهوامش:

[1] فرانتز فانون، معذبو الأرض، ترجمة : سامي الدرومي وجمال الاتاس، دار الطليعة للنشر– بيروت، ط. 1979،ص17

[2] المرجع نفسه، ص20

[3] فرانسواز فرجاس، شبح فرانس فانون أو نسيان العالم الثالث، ترجمة،س. لطفي، الملتقى الوطني الأول " فرانس فانون- الطارف 12 ، 13 جوان
2004 ، ص 80

[4] محمد الميلي، فانون كماعرفته، الملتقى الوطني الثاني" فرانس فانون " 30-31 ماي 2005 - الطارف، ص53

[5] فرانسواز فرجاس،المرجع السابق،ص80

[6] محمد الميلي،المصدر السابق،ص67

[7] فرانسواز فرجاس،المرجع السابق،ص81

[8] اجتمع الاثنان منذ سنة 1957 في إعداد جريدة "المقاومة" التي تحولت إلى" المجاهد " وجمعتهما مذ ذاك صداقة قوية إلى غاية وفاة فانون سنة 1961 .

[9] محمد الميلي،المصدر السابق، ص58- 64

[10] وهو أول كتاب لفانون أراد تقديمه في أطروحة طبية لكن رفض بالشكل الذي قدم عليه، من طرف اللجنة. نشر الكتاب بدار النشر" لوساي " سنة 1952. يقول فانون عن هذا الكتاب أنه دراما بسيكولوجية تتناول عقد الأنتيليين الناتجة عن التمييز والاستعمار. فرانسواز فرجاس ، المرجع السابق ، ص82 وكذلك :
Frantz Fanon , Peau noire Masque blancs , Edition ANEP.Alger 2004,p5-6 .

[11] فرنسوا فرجاس، المرجع السابق، ص 83-84 وكان فانون قد تعرف على الجزائر إبان الحرب العالمية الثانية قادما إليها من المغرب ومكث فانون ببجاية عدة أشهر ثم حول إلى فرنسا. رضا مالك، الملتقى الوطني الأول " فرانس فانون" الطارف، ص 30

[12] رضا مالك،المرجع السابق،ص31

[13] بيار شولي، الملتقى الوطني الأول، فرانس فانون بالطارف، ص19

[14] مبروك لعوج،الطب العقلي في عهد الاستعمار الفرنسي بالجزائر، تشريح مسيرة، دار القصبة،الجزائر، 2012، ص66-68

[15] كلودين شولي، الملتقى الوطني الأول، فرانس فانون- الطارف،ص26

[16] فرانسواز رجاس، المرجع السابق،ص84

[17] بيار شولي،المصدر السابق،ص20

[18] فرانز فانون،من أجل إفريقي، ترجمة محمد الميلي، الشركة الوطنية للنشر،الجزائر، 1980، ص35-38

[19] بيار شولي، المصدر السابق،ص20-21

[20] أحمد حمدي، فرانز فانون، من الجماهير إلى الثقافة الوطنية ، الملتقى الوطني الأول -الطارف ، ص48

[21] جون بول سارتر، مواقف مناهضة للاستعمار، ترجمة ممد معراجي، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر 2004، ص94

[22] فرانتز فانون، من أجل إفريقيا، المصدر السابق، ص06

[23] كتاب "معذبو الأرض" ألفه فانون وهو يصارع المرض وقدمه لصديقه سارتر ليقدم له

[24] فرانتز فانون، معذبو الأرض،المصدر السابق،ص13

[25] المرجع نفسه،ص44

[26] فانون، من أجل إفريقيا،المصدر السابق، ص06

[27] فانون، معذبو الأرض، المصدر الساق، ص18

[28] المرجع نفسه، ص18-22

[29] فرانتز فانون، من أجل إفريقيا، المصدر السابق،ص31

[30] فرانز فانون، من أجل أفريقيا، المصدر السابق،ص 73-74

[31] بيار شولي، المصدر السابق،ص 20-27

[32] فرانسيس جونسو، كاتب ومفكر سياسي وأستاذ فلسفة ، وأنشأ " شبكة جونسون" لتحويل الأموال في أوروبا لصالح الثورة الجزائرية

[33] سارتر، المصدر السابق،ص94

[34] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي مرحلة الثورة 1954-1962، منشورات المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية.ط1.الجزائر، 2007، ص 134-135

[35] المرجع نفسه، ص135

[36] المرجع نفسه، ص 513- 136